الفصل الرابع
الفكاهة فى شعر حافظ إبراهيم

كان حافظ فى جلساته بين أصدقائه خفيف الظل، عذب الحديث، رائع النكتة حتى عرف بدعاباته ونكته ، وله فى ذلك المجال إنتاج كبير شعرا ونثرا حيث منحته الطبيعة قدرة فائقة على الفكاهة الحلوة والنوادر المستملحة، فبالرغم من حالة البؤس التى كان يعيشها ورغم الخوف والقلق الذى كان يحياه فقد كان يقضى معظم وقته فى المقاهى والمنتديات حيث يضحك ويضحك معه الناس من الأعماق، يسخر من كل شئ ، ويملأ المكان بأساليب الفكاهة الأدبية التى تتميز بالبساطة وخفة الروح، وتحرك نفوس الناس ليضحكوا رغم ما هم فيه من معاناه.

وعلى الرغم من شعوره باليتم والحزن والاكتئاب، فقد كانت روحه تتسم بالحياة المستهينة بقيودها، وكان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل ما يدور حوله فى جلساته فما أن يسمع حديثا أو يعرض أمامه شئ حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيختطف النادرة من كل لفظ ويرتب الدعابة من أى معنى، فكان يضحك من البؤس ومن الشقاء ومن كل شئ، ويصوغ من ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق قلوبهم، حيث يرسل النكتة فيستخرج منها ضحك الشيخ الوقور، والرجل الرزين ، والشاب الصغير ومن العجيب مع هذا أنه قلما نرى للنوادر والنكات فى شعره إلا القليل ومن نوادره ودعاباته ونكاته نذكر أنه كان ذات مرة فى زيارة للشيخ المراغى شيخ الأزهر، ورئيس هيئة العلماء فى داره بحلوان

يتناقش معه فى المسائل الدينية والأدبية وكثيرا ما كان حافظ يداعب الشيخ، وكان الشيخ يتقبل دعاباته ويطالبه بالمزيد منها، وحدث أن الشيخ المراغى اشترى خمسة من الديوك الرومى، ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فارسل حافظ إلى الشيخ رسالة تعزية قال فيها:

رحم الله خمسة من ديوك ... للمراغى عوجلت بالفنـــاء
فلو أن الأستاذ خير فيها ... بين موت لها وبين فـــداء
لافتداها بخمسة من شيوخ ... من اساطين هيئة العلمـــاء

ومما يحكى عن نوادر حافظ أن سعد زغلول كان علـى موعـد مـع الأديب المعروف أمين الرافعى فذهب إليه متأخرا، ولما سأله سـعد عـن سبب تأخره أخبره أنه حدث له مغص، فشرب فى الصباح شربة من الملح الانجليزى، وأن الشربة لم تتحرك فى بطنه، وكان حافظ إبراهيم جالـسا، فرد على الفور "هم الانجليز يا أمين بك لما يدخلوا حتة يطلعوا منها؟!

وبهذا جمع حافظ بين النكتة من الانجليز والتهكم عليهم فى وقت واحد فإن كانت النكتة هنا مادة للدعابة والضحك، إلا أنها أكدت حقيقة واقعيـة، ساقها حافظ ببديهته الحاضرة، كى تصف الانجليز، وتتهكم عليهم ، ثم تهزأ من وجودهم، وقد جاءت فى تلقائية مباشرة، أنبثقت من نفس شاعر النيل، حتى صارت مثلا، تتلقفه العامة ويتردد بين الناس.

ومما يروى أن الدكتور محجوب ثابت قد رأى حلما فقصه على سـعد زغلول، فأخبره بأن حافظ هو الذى يمكنه تفسيره، خاصـة وأنـه كـان مشهورا بتفسير الأحلام ويعتقد فى الرؤى وأثرها فى حياة الانسان ولمـا قصه على حافظ بقوله : رأيتنى راكبا بغلة عليها سرج موشـى بالـذهب،

سائرة بى فى حقول خضراء، بينما كان كثير من الحمير تتبعنى، فقال لـه حافظ (البغلة دى كرسيك فى مجلس النواب، فسأله محجـوب: والحميـر اللى كانت ورايه ؟ فقال حافظ دول اللى راح ينتخبوك.

ويحكى أن حافظ كان دائم التندر والسخرية على صديقه إمام العبد وكانت له معه مفاكهات كثيرة تؤكد قوة العلاقة بينهما، وذات مرة كان إمام العبد يملى شيئا، وحدث أن سقطت نقطة حبر على الورق فقال له حـافظ (الحق يا إمام نشف عرقك) ومن المعروف ان اماما كان أسـود الوجـه، وذات مرة لبس أمام رباطا للرقبة أسود فلما رآه حـافظ قـال لـه (زرر القميص يا إمام).

ويتندر حافظ بصديقه إمام وكان يسكن فى بيت صغير ضيق "بأن غفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عـن المـرور وينادى يا إمام رجليك طالعة من الشباك يا أخى مش ضرورى تنام ممدد" وفى أحد الأيام نزلا إلى البحر معا، وعندما خرجا نظر إلى إمـام وكـان شديد السواد من شدة الشمس، وقال "أنت الان سودانى مملح" ثم رأى سيدة جميلة تسير على الشاطئ فالتفت إلى إمام وأخذ يقبله ، فانزعج إمام وسأله، ما هذا يا حافظ؟ فقال : اقبل الأرض بين يديها".

وذات مرة دخل عليه صديقه " الشيخ عبد العزيـز البـشرى" وبـادره قائلا:" لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست فرد عليه حافظ والله يظهر أن نظرنا ضعف. أنا كمان شفتك وانت جاى افتكرتك راجل.

وذات مرة كان البشرى وحافظ مدعوين إلى احدى الـرحلات ودخـل البشرى على حافظ فى غرفة النوم ، وطلب إليه ان يرتدى ملابسه فقال له

حافظ " أنا لسه مغسلتش وشى فرد عليه البشرى وشك مش عاوز غسيل نفضه كفاية"!

وحدث ذات مرة أن حافظ حضر حفلة موسيقية وكان العزف رديئا فطلب من قائد الفرقة ان يسمعهم لحنا آخر، فأجاب المايسترو بان اللحن الذى يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق، فصاح حافظ على الفور: يا سلام، على كده يبقى انبسطنا. وخلال الحملة الانجليزية بقيادة كتشنر على السودان ألحق حافظ بهذه الحملة رغم أنفه، وحدث ان عاد ذات مرة إلى المعسكر متأخرا، فصاح فيه الحارس الانجليزى الذى كان يقف عند بوابة المعسكر. مين هناك، وكرر النداء أكثر من مرة وارتبك حافظ ولم يدر ماذا يفعل ثم صاح مجيبا أنا انجليزى يا جورج.

ومما يروى ان حافظ كان يكره شاعرا من شعراء عصره كراهية شديدة، وكان هذا الشاعر يتولى منصبا مهما يحتاج حافظ إليه، لذلك كان يبدى له الود وان كان يبغضه فى حقيقة نفسه. سأله هذا الشاعر ذات مرة عن رأيه فى أعظم شاعر فأجاب حافظ إنه المتنبى فساله : واعظم ما قاله، فأجاب:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

ومما يذكر من طرائف حافظ أنه رأى رجلا كبير الكرش، فقال له مداعبا: ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل، فأجابه: نعم، فقال حافظ: ظاهر لقد حملت عنها حملها" ، "ومر يوما على رجل يبيع مراوح، فساله عن ثمنها، فقدم له مروحة، وقال له: هذه بقرش واحد، ثم قدم له أخرى مثلها وقال له: وتلك بقرشين، ونظر حافظ فى المروحتين

وقلبهما، ولم يجد فرقا بينهما، فقال له: هذه تأتى بهواء بحرى والأخرى تأتى بهواء قبلى!" ، ومما يذكر أنه دعا جماعة من أصحابه إلى طعام، وجاءوا معهم بصديق لهم، لم يكن يعرفه ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت من المدعوين، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى!" و "دعى حافظ مع جماعة على طعام، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظ، فقال للمضيف: ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى".

وكتب حافظ ذات مرة إلى جار له لم يَدْعُهُ لحفل زفافه فقال:

أحامد كيف تنسانى وبينى ... وبينك يا أخى صلة الجوار
وبيتى فارغ لا شئ فيه ... سواى وانننى فى البيت عارى
وما لى جزمة سوداء حتى ... أوافيكم على قرب المزار
فإن لم تبعثن إلى حالا ... بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف ... ومن حمل تتبل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى ... وسوف أريك عاقبة احتقارى

وعلى الرغم من خفة دم حافظ ونكتته فقد كان فى قراره نفسه حزينا على نفسه وحزينا على وطنه فقد أجاد الرثاء فى كل منها، فبعد أن تعرض للمرض وعاش وحيدا كتب قائلا:

مرضنا فما عادنا عائد ... ولا قيل أين الفتى الألمعى
ولا هش طرس إلى كاتب ... ولا خف لفظ على مسمعى

سكتنا فعز علينا السكـــوت وهان الكلام على المدعـــــى

وإلى جانب ذلك فقد أعلن حافظ ابراهيم عن تبرمـــه وحزنـــه الـــدفين وسخطه من الحياة التى يعيشها فقال:

عزت الســـلعـــة الذليلة حتـــى بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغذا القوت فى يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

ويخال الرغيف فى البعد بدرا ويظن اللحوم صيدا حرامـــــا

ثم يندب حافظ حظ أبناء وطنه وما هم فيه من ذل وحرمان بينما يعيش الأجنبى الذى يفد إلى مصر وكأنه المتحكم فى مصائر الأمور فيقول:

بنو مصر فى حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاما فعاما

أيها النيل كيـــف نمســـى عطاشا فى بلاد رويت فيها الأناما

يرد الواغـــل الغريـــب فيـــروى وبنوك الكرام تشكو الأواما

قد شقيـــنا ونـــحن كرمنـــا اللـــ ـــه بعصر يكرم الانعامـــا

وهكذا يتضح من هذه المواقف التى تتسم بالحيوية والمـــرح ان حـــافظ كان يتندر فى دعابة على ما وصلت إليه الأحوال فكـــان حـــزين الـــروح مكتئب النفس حينا، مرحا يسخر بالحياة ويستهين بها فى دعابة فكهة فـــى أحيان أخرى.